

التطور العمراني لمدينة دمشق من العصر الآرامي إلى العصر الأموي



هبة عصام حسين (*)

المقدمة:

إن البحث عن تفسير نشأة وتطور المدينة العمراني لابد أن يعود بنا إلى المدن القديمة التي استطاعت أن تثبت أقدامها في تاريخ الحضارة القديم بما أوجدت من مؤسسات أسهمت في استقرار الإنسان كما كان الحال في دمشق وروما وأثينا، وهذا ما دفع الباحثين المهتمين بشؤون الحضارة إلى تفسير تكون المدن على أسس ونظريات شتى منها الديني ومنها الاجتماعي.

كانت دمشق من المناطق الرائدة لثقافة العصر الحجري الحديث (النيوليتي) في المشرق، فانتشار المواقع النيوليتية حول المدينة، مثل موقع تل أسود وموقع تل الرماد، يدل على أن المنطقة كانت مسكونة منذ مطلع الألف السابع قبل الميلاد، وأنها قد ساهمت في الثورة الثقافية الأولى في تاريخ البشرية والتي يدعوها علماء الآثار بثورة العصر الحجري الحديث أو الثورة النيوليتية.

(*) باحثة في الآثار الإسلامية، طالبة ماجستير، كلية الآداب، قسم الآثار، جامعة عين شمس.

يظهر الاسم دمشق لأول مرة في التاريخ حوالي ٤٥٠ ق.م، وذلك في سجلات الفرعون تحوتمس الثالث الحربية، حيث ورد بصيغة تمسكو(تا-مس-كو). ثم ظهر بعد ذلك بقرن من الزمان في رسائل تل العمارنة، حيث ورد ثلاث مرات وبثلاث صيغ هي تمشقي(تي-ما-اش-قي)، ودمشقا(دي-ماش-قا)، ودمشقا(دو-ما-اش-قا). وفي السجلات الآشورية فيما بين القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد، يرد اسم دمشق في معظم السجلات الآشورية لسبلاد الشام، وذلك بصيغ ثلاث: (دي-ماش-قا)، ودمشقي(دي-ماش-قي)، ودمشقو(دي-ماش-قو). أما في النصوص الآرامية فيرد بصيغة واحدة هي دمشق^(١).

أولاً: المدينة في العصر الآرامي(٩ق.م - ١ق.م):

يُعَدُّ الوصول إلى معرفة أصل مدينة دمشق من الأمور الصعبة إذا نظرنا إليه من قِبَل علم الآثار الذي ظهر مؤخراً، ولكن قد أُتيح لنا ذلك على أغلب الظن بالجوء إلى سفر التكوين حيث ورد : " بنيت دمشق على يد دمشق بن قناني بن مالك بن أرفاشاد بن سام قبل ميلاد إبراهيم عليه السلام بخمس سنوات"^(٢).

وأكد ابن روشية^(٣) أن "مكان دمشق كان داراً لنوح عليه السلام، وأن أول حائط وضع في الأرض بعد الطوفان حائط دمشق وحران"^(٤).

ويرجح بأن موقع المدينة في ذلك العصر كان يشغل الجانب الغربي من دمشق القديمة بسبب ارتفاع هذه المنطقة بشكل ملحوظ عن الجانب الشرقي، وكانت أزقة المدينة ومساكنها تتوزع بغير انتظام بين معبدها الشهير "معبد حدد" والقصر الملكي، الذي يرجح الأثريون أن يكون موقعه جنوب المدينة، وفعلاً فإن المتجول

مدقق النظر يجد تلاً ضائعاً بين المسالك والأحياء القديمة، يدل عليه اسم الحي المعروف بئلة السماكة ، وتشير الدراسات الطبوغرافية إلى ارتفاع ذروة التل من خمسة عشر متراً عن قاعدته و (٦٩٥ م عن سطح البحر). والتل اليوم مشطور بالشارع المستقيم الذي شُق في العصر الروماني^(٥).

ثانياً: المدينة في العصر اليوناني :

لم يحدث شيء ذو أهمية في دمشق خلال عصر الاحتلال الآشوري (٦٠٥ ق.م - ٨٠٠ ق.م)، ثم البابلي (٣٨٠ ق.م - ٦٠٥ ق.م)، والفارسي من الناحية العمرانية والفنية، إلى أن حل اليونان فيها إثر الفتح المقدوني عام ٣٢٣ ق.م حيث عاش اليونانيون إلى جانب الآراميين جنباً إلى جنب، وأصبح لليونانيين جالية كبيرة سكنت أحياء مستقلة مؤلفة مدينة جديدة إلى جانب المدينة الآرامية لها نظام المدن اليونانية في التخطيط والتنظيم^(٦). وطبقاً للأسس التي وضعها المهندس المعماري هيبودا موس (Hippodamos) والتي كانت تطبيقاتها تتفق وتوصيات أرسطو، فإن الأحياء الجديدة بنيت حسب تخطيط منتظم عبارة عن شوارع متعامدة محددة بخطوط مستقيمة يتراوح عرضها ما بين ثلاثة وخمسة أمتار، وفي وسط كل شارع مجموعة بيوت مستطيلة متلاصقة لها فتحات على الطريق العمومي، حيث أصبح هناك مدينتان متجاورتان في الشرق مدينة إغريقية مقدونية حول الساحة العامة (agora)، وفي الغرب المدينة الآرامية حول معبدها^(٧).

ولعل العصر الهيليني هو الذي قد ساهم في تشكيل النمط العمراني للمدينة مبرزاً شوارع شبكية التخطيط وأنماطاً معمارية مختلفة من حمامات عامة ومعابد

ومسارح وملاعب رياضية وساحة عامة، وبني السور حول منطقة الاستقرار السكني، وهكذا بدأ الشكل الحضري المبكر للمدينة يظهر ويتجلى حوالي عام ٣٠٠ ق.م^(٨).

ثالثاً: المدينة في العصر الروماني :

ضاعفت حالة السلم والازدهار الاقتصادي اللذين حظيت بهما دمشق في العصر الروماني عدد سكانها، كما أحدثت حركة عمرانية واسعة، الأمر الذي استدعى توسيع المدينة، وإحداث تنظيم جديد فيها يحقق المفاهيم الجديدة في تنظيم المدن وتحصينها^(٩).

ولعل أهم هذه التطورات وأكثرها تأثيراً على مخطط المدينة هي تلك التي حدثت في بداية الفترة الرومانية (٦٤ ق.م) عندما ضم القائد بومبي (Pompei) سورية السلوقية إلى الإمبراطورية الرومانية بعد أن حصلت المدينة على لقب وامتيازات حاضرة (Metropolis) ويعتبر بناء سور دمشق من أهم المشاريع المعمارية التي تحققت في العصر الروماني حيث أحاط هذا السور بما يلي :

- مدينة دمشق الأرامية حول (معبد حدد) بمساكنها وأسواقها وطرقها الضيقة.

- الحي المقدوني الذي أسس في العصر الهلنستي في جوار المدينة الأرامية.

- الحي النبطي الذي أقام فيه العرب الأنباط نوو الفعاليات الاقتصادية.

وكان هذا المخطط التنظيمي الجديد لمدينة دمشق قد اشتمل على ساحة عامة (Forum)، ومسرح إلى جانب الأسواق في الشوارع الطولية والعرضية^(١٠).

تمركز السوق في المدينة ابتداءً من عصر الإمبراطور هادريان (Hadrian) حول الشارع المستقيم (Via Rect) الذي بلغ طوله في ذلك الوقت من الشرق إلى الغرب ١٥٠٠ م ، وقد أحاطت بجانبيه أروقة مغطاة ومرفوعة على أعمدة قامت خلفها المخازن المختلفة مما أتاح للعمارة تجنب العوامل الجوية السيئة، في حين خُصص وسطه للنقل على العربات ، إذ كان مرصوفاً بالحجارة بعرض ٢,٥ م ، ويقوم مكان الشارع المستقيم في الوقت الراهن سوق مدحت باشا^(١١).

وقد وسع الرومان معبد جوبيتر اليوناني والساحة العامة والنظام الشبكي للشوارع، وأوجدوا لأول مرة نظام الصرف الصحي الذي ما زالت آثاره باقية حتى الآن^(١٢).

رابعاً: المدينة في العصر البيزنطي :

بدأ العصر البيزنطي سنة ٣٩٥ م ولم يضاف إلى المدينة أي جديد في التنظيم العمراني، وعلى العكس من ذلك فقد شهدت الإمبراطورية البيزنطية ابتداءً من القرن السادس تدهوراً عسكرياً ومالياً كان له الأثر الأكبر في ذلك .

وقد بين العديد من الباحثين أن التخطيط المتعادم الذي تميّزت به المدن الإغريقية والرومانية وخاصة وجود الشارعين العظيمين المتقاطعين قد بدأ يفقد خواصه المعمارية ابتداءً من ذلك العصر، مما سمح باعتداء بعض الأبنية على الطرقات العامة وتراكبها على أطرافها، مما أخل باستقامتها وعرضها، وعلى هذا الأساس فإن الروح المدنية للمدينة ضعفت واختلف تخطيطها عن أصله الروماني عندما دخل الفاتحون المسلمون^(١٣).

وقد أضيفت الكنيسة كنموذج بناء بيزنطي للمدينة، فمعبد جوبيتر الذي أهمل استخدامه تبعاً لتغير الديانات أعيد بناؤه وحُوّل إلى كنيسة، وضمت التلة الغربية للمدينة التي أصبحت ضمن السور في الفترة الرومانية لاحقاً، بالإضافة إلى الأجورا كقصر بيزنطي^(١٤).

خامساً: المدينة في العصر الأموي:

حدث الفتح الإسلامي لمدينة دمشق في رجب من السنة الرابعة عشرة للهجرة^(١٥)، وحاصر أبو عبيدة البيزنطيين في رجب وشعبان ورمضان وشوال وتم الصلح في ذي القعدة من نفس العام^(١٦).

اختلف المؤرخون في أسلوب فتح دمشق هل كان صلحاً أم عنوة وفي هذا يقول ابن كثير "اختلف العلماء في دمشق هل فتحت صلحاً أو عنوة؟ فأكثر العلماء على أنه استقر أمرها على الصلح؛ لأنهم شكوا في المتقدم على الآخر؛ أفتحت عنوة ثم عدل الروم إلى المصالحة، أو فتحت صلحاً واتفق الاستيلاء من الجانب الآخر قسراً؟ فلما شكوا في ذلك جعلوها صلحاً احتياطياً. وقيل: بل جعل نصفها صلحاً ونصفها عنوة. وهذا القول قد يظهر من صنيع الصحابة في الكنيسة العظمى التي كانت أكبر معابدهم، حين أخذوا نصفها وتركوا لهم نصفها. والله أعلم^(١٧). وحل أمراء العرب وكبرائهم في الدور والقصور التي أخلاها أصحابها البيزنطيون من حكام وقواد" ولما فتحت دمشق خرج عدد كبير من أهلها ليلحقوا هرقل وهو بإنطاكية فكثرت فضول منازلها، فنزلها المسلمون^(١٨). وبذلك توزع المسلمون في جميع أنحاء المدينة، ولم يكن لهم أحياء خاصة بهم وأحياء خاصة بالمسيحيين كما

فكر وإبداع

سيحدث فيما بعد، ودليلنا على ذلك أن ابن عساكر يذكر دوراً للصحابية كانت في أحياء باب توما وباب شرقي وهما من الأحياء للمسيحية دار الأنصار عند دار بني حيان في نواحي السوق من باب توما،... دار مالك بن هبيرة الكوني، دار خلف باب شرقي^(١٩)، ويذكر ابن عساكر أنه تم إقطاع الدور للمسلمين دار تعرف اليوم ببني بحشل، يعني ابن معبد الصحابي مع ضيعة تعرف بالوابصي إقطاع له بعد الفتح،... دار طلحة، كانت لأبيه عمرو بن مرة الجهني وهو صحابي إقطاع له...^(٢٠).

والإقطاع هو إقطاع الإمام (الحاكم) المستقطع (أي الشخص الذي سياخذ الأرض) قدر ما ينهيا له عمارتها، وبالطبع لا يكون للسلطان إقطاع ما كان مملوكاً لأحد، ولكن له أن يقطع من الموات، أو مما تملكه الدولة (بيت المال) فعند بدء الدولة الإسلامية، وكما هو معروف كانت شعوب الأمم الأخرى تدعى للإسلام سلماً، فإن استجابوا فإن الأراضي التي أسلموا عليها كانت تعتبر أراضي عشر وتبقى ملكاً لأصحابها كما حدث في المدينة والطائف. أما من لم يسلموا وأرادوا الصلح؛ فإن أرضهم بقيت ملكاً لهم كما حدث مع أهل دمشق وكان عليهم دفع الجزية والخراج وإيقاء ما كان قد صالحهم عليه المسلمون من شروط^(٢١). ويذكر ابن عساكر شروط الصلح وكان صلح دمشق على المقاسمة، الدينار والعقار، والدينار على كل رأس اقتسموا السلاب، فكان أصحاب خالد فيها كأصحاب سائر القواد، وجرى على الديار ومن بقي في الصلح جريب^(٢٢)، من كل جريب أرض^(٢٣). ويذكر ابن عساكر في باب حكم الأرضين: "وقد صح أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أمضى لأهل مدينة دمشق الصلح، لأنه رضي الله عنه عندما أشكل عليه الحال في

الفتح، وهل سبق من دخلها عنوةً أو من دخلها بالصلح، أمضاهما كلها صلحاً لأهلها..... وقال: ولولا آخر المسلمين ما فتحت عليهم قرية إلا قسمتها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر^(٢٤). وما فعله صلى الله عليه وسلم في خيبر، هو تقسيم أربعة أخماس الغنائم بين الذين افتتحوها فكانت ملكاً لهم، وبهذا فسين الفرق للمالكة هم الأفراد لو لقاتحون وليس بيت المال، وأما الخمس الأخير فقد بقي بأيدي أهل خيبر يعملون بها ولكنها ملك للمسلمين على أن يكون ثمرها بينهم وبين المسلمين، وهذا الخمس هو الذي ملكه بيت مال المسلمين^(٢٥). والمبدأ الذي أقره الرسول صلى الله عليه وسلم لمن لم يدخل في الإسلام ولكن رضي بالعيش في كنف الدولة الإسلامية هو أن يقوم المسلمون لهم بكل ما صالحوا عليه من شروط على أن يدفعوا الجزية والخراج للمسلمين. قال (ص): "إنكم لعلمكم تقتاتلون قوماً، فيتقونكم بأموالهم دون أنفسهم وأبنائهم ويصالحونكم على صلح، فلا تأخذ منهم فوق ذلك، فإنه لا يحل لكم"^(٢٦). ثم سار على ذلك الخلفاء الراشدون في مدن وقرى العراق والشام ومصر^(٢٧).

وهناك افتراضان في عملية استيطان المسلمين في مدينة دمشق بعد الفتح:

- ١- أن المسلمين تركزوا بشكل خاص في الجزئين الشرقي والجنوبي حول ساحة للمعبد الأصلية (Temenos) من ناحية أخرى إذا ذهبنا إلى شروط الصلح الذي وقعه المسلمون مع سكان دمشق تبين لنا أنهم تملكوا بعض الجزء الشرقي في المدينة وهو الذي افتتحوه عنوةً مما يؤيد افتراضنا بأن أبنيتهم الأولى قد تركزت فيه^(٢٨). "وجعلوا نصفها صلحاً، ونصفها عنوةً، فملك أهلها نصف ما

كان بأيديهم، واستقرت يد الصحابة على النصف، ولهذا أخذ الصحابة نصف الكنيسة العظمى التي كانت بدمشق، وتعرف بكنيسة يوحنا، فاتخذوا الجانب الشرقي منها مسجداً، وأبقوا لهم نصفها الغربي كنيسة^(٢٩).

ومما يدعم هذا الرأي أن أغلبية المصادر الإسلامية المبكرة أكدت أن المسلمين حتى عصر الوليد بن عبد الملك قد استعملوا النصف الشرقي فقط من ساحة المعبد كمسجد في حين تركوا الجزء الغربي للسكان المسيحيين احتراماً لشروط الصلح.

٢- الافتراض الثاني يوضح أن تركز المسلمين في بيوت المدينة جاء في عمليات إخلاء أو امتلاك من قبل العرب المسلمين للبيوت الشاغرة في دمشق بعد ترك الكثير من القاطنين المسيحيين لها بشكل طبيعي وعفوي والحق بالدولة البيزنطية، حيث أن المسلمين حسب شروط الصلح لم يقطعوا أي أحياء خاصة بهم، ويرى نزار السعيد أن قادة الحاميات العربية المسلمة سكنوا البيوت الشاغرة في دمشق كل حسب موقعه من المدينة، فتواجدت حامية خالد بن الوليد في باب شرقي، وأقامت حامية أبي عبيدة بن الجراح في باب الجابية^(٣٠).

لم يحدث أي تغير في النسيج العمراني لدمشق أثناء الفتح الإسلامي وبقي الحال هكذا حتى أصبحت دمشق عاصمة الخلافة الأموية عام ٤١هـ/٦٦١م تحت حكم معاوية بن أبي سفيان الذي سكن قصراً بيزنطياً ضمن المدينة عندما كان والياً عليها وبعد مضي عدة سنوات على خلافته بني لنفسه قصر الإمارة والذي تمثل في إعادة إعمار القصر البيزنطي بأسلوب إسلامي، ولم تكن إعادة البناء هذه وليدة

الصدفة، بل كانت هدفاً لإظهار المسجد الجامع ودار الإمارة كبرهان على القوة المتصاعدة للإسلام^(٣١).

أوجبت الضرورة الوظيفية قرب دار الإمارة للمسجد الجامع، حيث كان في بناء الرسول صلى الله عليه وسلم منزله ملاصقاً للمسجد الجامع المثال الأول الذي اتبع بعد ذلك في إنشاء دار الإمارة مجاورةً للمسجد في المدن الناشئة والمفتوحة على حد سواء. ثم حدث تطور أدى إلى التصاق دار الإمارة بالمسجد الجامع، وكان بداية ذلك حينما كان زياد بن أبيه والياً على البصرة ٤٤هـ/٦٦٥م من قبل معاوية بن أبي سفيان إذ رأى زياد عندما كان يقوم بتجديد المسجد أنه ينبغي ألا يمر بين المصلين عند توجهه إلى المحراب فحول دار الإمارة إلى قبلة المسجد فيستطيع الوالي أن يخرج منها إلى الباب في جدار القبلة مباشرة^(٣٢).

وأصبحت هذه الظاهرة تقليداً معمارياً في قصور الخلفاء ودور الإمارة في المدن المختلفة تحقيقاً للغرض الذي هدف إليه زياد وهو ألا يتخطى الخليفة أو الوالي رقاب المصلين بل ينفذ مباشرة من جدار القبلة^(٣٣)، وفي ذلك ما يؤكد على الحرص الشديد على تنفيذ ما ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. عن عبد الله بن بشر قال: جاء رجل يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة، والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب فقال له رسول الله (ص): "الذي يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة ويفرق بين الاثنين بعد خروج الإمام كالجاز تصبه في النار"^(٣٤).

ووجود دار الإمارة بجوار الجدار الجنوبي لرواق المعبد القديم (Peristyle) شاهد على العمران، وهنا يمكننا أن نخمن أن هذا التجمع السكاني للمسلمين قد أدى

إلى نشوء بعض الأكشاك البدائية حول الجدارين الشرقي والجنوبي للجامع، لتلبية الاحتياجات المباشرة للمستوطنين المسلمين.

ومع ذلك فقد بقي النشاط التجاري للمدينة خلال الفترة الإسلامية المبكرة متركزاً في الشارع المستقيم حيث استمر السكان المسيحيون واليهود في ممارسة تجارتهم^(٣٥). ولم يبدأ مركز المدينة للتجاري في التحول شمالاً إلى منطقة تجمع المسلمين حتى بناء الجامع الكبير في عهد الوليد بن عبد الملك ٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م، حيث أدى إنشاء هذا الجامع وربطه بدار الإمارة إلى خلق مركز جديد للمدينة، تركزت فيه النشاطات الإدارية والمالية لعاصمة الدولة الأموية، في حين بقيت غالبية الأنشطة التجارية متمركزة على المحور الأصلي (الشارع المستقيم).

ومن المفترض أن نشوء هذين القطبين في المدينة كان سيؤثر تأثيراً مباشراً على تطور السوق في المدينة مما يجعلها مختلفة تخطيطياً عن النموذج النظري الذي افترضه بعض الباحثين كماسينون (Massignon) وفون جرونباوم (Von Grunebaum) حيث إن موضع السوق في المدينة الإسلامية يتم وفقاً لدوائر مشتركة بالمركز الذي كونه المسجد الجامع. وابتداءً من هذه الفترة سنلاحظ ازدواجية في المركز التجاري لمدينة دمشق لم تختف حتى اتصل المحوران بعضهما ببعض مشكلين حرف U مقلوباً، على رأسه الجامع الأموي مع الأسواق المحيطة به من جهاته الأربعة. حورت هذه الشروط التاريخية تطور السوق الدمشقي وكانت العوامل الأكثر تأثيراً في تكون السوق في دمشق هي نفسها السائدة في أي مدينة إسلامية أخرى: التاريخ، الموقع، والأصول العمرانية للمدينة^(٣٦).

يعتبر السوق بشكل عام أحد العناصر المهمة المكونة لبنية المدينة العمرانية في دمشق والمميزة لتطورها المعماري عبر العصور، وقد لاحظ العديد من الباحثين في عمران المدن الإسلامية أن تخطيط السوق والتسلسل الوظيفي لعناصره المكونة قد شكلا عاملين حاسمين في انتماء أي مدينة للنموذج الإسلامي المجرد. واتفقوا على أن الأسواق في المدن الإسلامية قد تطورت تبعاً لعوامل مختلفة نابعة من خصوصيات الحياة المدنية ومن الدور الفعّال الذي لعبته التجارة^(٣٧).

سادساً- التحول من المخطط الشبكي إلى المخطط التقليدي للمدينة الإسلامية :

بدأت المدن الإغريقية والرومانية ذات المخطط الشبكي في التدهور قبل العصر الإسلامي وإن تدهور مخططاتها الأصلية أفقدها السمات الرئيسية الذي بدأ في الواقع في بعض الأماكن في أوائل القرن الثاني الميلادي. وتعود عملية التغيير هذه إلى تغير مركز الاهتمام؛ فلقد استبدل بالاهتمام السياسي في المجتمع وبالمثاليات التقليدية لوحدة المدينة، ووضوح التصاميم المعمارية، اهتمام ديني غالب^(٣٨).

ولقد انعكس هذا على تخطيط المدينة الإسلامية بظهور تكوينات حضرية ومعمارية جديدة أظهرت تماسكها ووحدة نسيجها العضوي في الخصائص والمميزات. فالسوق والخان يمثلان عنصرين موروثن في الهيكل الحضري لمدن ما قبل الإسلام في حين اختفت عناصر أخرى لا تمثل أو تعكس آليات الأداء الوظيفي في تكوين المدينة الإسلامية كما هو الحال في المسارح أو الملاعب

وظهرت بديلاً عنها عناصر أخرى كالجوامع أو المدارس، حيث يمثل المسجد الجامع النواة التي يتكون منها العمران^(٣٩).

وعندما عاد سوفاجيه (Sauvaget) إلى نفس الموضوع ضمن دراسته لدمشق تساءل كيف حدثت عملية التحول في المخطط وللإجابة أخذ سوفاجيه الطريق الرئيسية في المدينة الأصلية (الشارع المستقيم - Via Recta)، وكيف تحول إلى ما يعرف بالسوق في المدينة العربية الإسلامية، ويعتبر عملية التحول عملية تحول زمني، حيث يقول أنه خلال التطور العام لمدينة دمشق وبسبب تزايد انتهاك حرمة الساحات التي بطل استعمالها خلال العصر الإسلامي، تم تحويل هذا الطريق الرئيسي إلى سوق من أسواق المدينة في العصور الوسطى^(٤٠).

ويعزو الهذلول التحول العمراني الذي حدث في دمشق إلى عوامل أكثر فعالية من ضعف السلطة وعدم الاستقرار التي يوردها سوفاجيه وهي : معتقدات ومفاهيم السكان ونظرتهم للحيز التكويني العمراني واقتران ذلك بظاهرة اختفاء العربية كوسيلة للنقل بالإضافة للعوامل المناخية والحاجة إلى الحماية من الشمس التي يبدو أنها لم توضع في الاعتبار في مخططات المدن الإغريقية كل هذه العوامل لعبت دور رئيسي في هذا التحول .

كما يرى أن ظاهرة تقدم الأبنية على حساب عرض الشوارع هي الآلية الرئيسية في نشأة وتطور الشوارع بالمدن الآنية غير المنشئة. فالأبنية تكون متباعدة أول الأمر، ثم تأخذ في التوسع والاقتراب من بعضهما البعض إلى أن

تصل إلى مسار المرور فتتحدد الشوارع حينئذ بجدران المنازل، وتأخذ شكلها نتيجة لها^(١).

ويبدو أن الخروج عن الالتزام بالأساس الشطرنجي قد بدأ منذ العهد البيزنطي وليس نتيجة للفتح العربي الإسلامي، فالشوارع المستقيمة والعريضة التي كانت أساساً للنسيج الشطرنجي بدأت منذ العهد البيزنطي تتحول إلى دروب ضيقة بحيث تقلص عرض الشارع إلى ثلثه بل وحتى إلى رבעه، ففي العصر البيزنطي لكتفي مثلاً بالفتحة الشمالية للباب الشرقي بدلاً من فتحات البوابات الأخرى لتكون مجالاً لمرور المشاة وبالتالي لم يعد الشارع المستقيم مستقيماً، فالطريق أصبح يتجنبها للمباني المتهمة أو المنشآت المحدثه على حساب الشارع الأصلي، فهو تارة ينكسر يميناً وتارة أخرى يساراً ثم يعود إلى الحدود الأصلية أو أنه يخترق منطقة الأروقة الجانبية وأحياناً يتراجع وراء حدود الدور الأصلية المطلة على الشارع المستقيم نفسه. حكمت الضرورة باقترب واجهات الأروقة في الأماكن التي تعدى فيها البناء على أروقة الشارع، والتي كانت تؤمن للظل للمشاة وللسكان معاً. ونتيجة لذلك نشأت حارة مغلقة في مكان الأحياء الكبيرة المترابطة مع بعضها بشوارع مستقيمة. بناء على هذه الأدلة الملموسة في بقايا المدينة القديمة، فإن الغيرة على اتساع الشوارع واستقامتها، قد بدأت تتلاشى منذ العهد البيزنطي، فالأفراد كانوا يتهاكون على اقتناص أكبر قدر ممكن من الشارع لتوسيع عقاراتهم أو لامتلاك عقار جديد، وقادهم هذا إلى التعدي على الفضاء الذي يعلو الشارع أو الدرب أو الزقاق، فلجؤوا إلى عملية البروز العلوي. وعندما فتح المسلمون مدينة دمشق، واصلوا السير على النهج القائم، فتحوّلت الجزر الشطرنجية بشوارعها

المستقيمة والمترابطة نتيجة لحركة البناء والإسكان الجديدة إلى أزقة منكسرة وسكك ملتوية ودروب مسدودة ، ولكن هل من الصحيح أن نعتبر أعمال البناء الإسلامية مجرد السكن في مبان قائمة سابقاً دون أن يكون للمسلمين قواعد وضوابط تتحكم في سلوكهم العمراني ؟ بالطبع لا فظاهرة الحارات المغلقة كانت وسيلة مبتكرة ومدرسة بدقة لحراسة قلب المدينة بأبسط الصور وأكثرها فعالية فهذه الطريقة تعزز درجة الاطمئنان والسكينة في نفوس الأهالي وتسد الطريق على مرتكبي أعمال الاغتصاب والنهب والقتل^(٤٢).

الخاتمة وتضمن النتائج:

١- لم ينشئ العرب المسلمون جميع مدنهم بل ورثوا في الواقع عدة مدن إغريقية وفارسية، ومعظم هذه المدن الموروثة، والتي لازلت موجودة حتى الآن كدمشق يتفق طابعها العمراني مع الطابع العمراني للمدينة الإسلامية، رغم أن المخطط الأصلي لهذه المدينة كان ذا نمط شبكي.

٢- تطور شكل المدينة الإسلامية في دمشق من مبادئ عامة سابقة لظهور الإسلام قامت على تحديد المحيط المادي للمدينة بأسوارها، وعلى مبدأ تنظيم المدينة حول مركزها الديني والسياسي والإداري.

٣- إن الجديد الذي أتت به العصور الإسلامية إلى التخطيط العمراني لمدينة دمشق، هو المرونة في التوسع خارج سور المدينة وارتبط ذلك بامتداد السوق،

فهي امتدت في الجنوب حيث طريق وأسواق الحج، وبتجاه شمال جنوب
السور.

هوامش البحث:

- ١- فراس السواح، آرام دمشق واسرائيل في التاريخ التوراتي، دار علاء الدين،
دمشق، ١٩٩٥، ص ١٩٢.
- ٢- علي أبو عساف، آرام دمشق، مجلة المعرفة، ع ٥٣٢، وزارة الثقافة،
سورية، ٢٠٠٨م، ص ٣٤، ٣٥.
- ٣- ابن روشيه: مؤلف من القرن العاشر الميلادي وموطنه لصفهان.
- ٤- جيرارد ديجورج، دمشق من عصر ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية ،
ترجمة محمد رفعت عواد، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص ١٩.
- ٥- بشير زهدي، مملكة دمشق الآرامية، الحوليات الأثرية السورية، م ٨، المديرية
العامة للآثار والمتاحف، دمشق، دت، ص ٩٣.
- ٦- عبد القادر الريحاني، تاريخ دمشق العمراني، الحوليات الأثرية السورية ،
م ١٤، المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، ١٩٦٤م، ص ٢٥، ٢٦.
- ٧- جيرارد ديجورج، دمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر ،
ترجمة محمد رفعت عواد ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة، ٢٠٠٤م،
ص ٢٣.

8- Lababedi. Zara, The Urban Development of Damascus:a
Study of its past, Present& Future, University of London,
Faculty of The Built Environment, 2008, p15

٩- عبد القادر الريحاني، المرجع السابق، ص٢٦.

١٠- بشير زهدي، دمشق في عصور اليونان والرومان والبيزنطيين، مجلة
المعرفة، ع٥٣٢، وزارة الثقافة، سورية، ٢٠٠٨م، ص٧٥.

١١- ناصر الرباط، مقدمة لدراسة السوق في مدينة دمشق في القرن السابع حتى
القرن التاسع عشر ميلادي، الحوليات الأثرية السورية، م٣٨، ٣٩،
١٩٨٨/١٩٨٩، ص٧٧.

12- Lababdi. Zara, Op, Cit, p17.

13- Kennedy. Hugh, The last century of Byzantine Syria:
Areinterpretation in Byzantinish Forchangin, Baudx,
1985., pp141-183.

14- AlSayyad .Nezar, Cities and Caliphs, on the Genesis Arab
Muslim Urbanism, Greenwood Press, New York, 1991,
p33.

١٥- بشير زهدي، دمشق في عهد اليونان والرومان، المرجع السابق، ص٧٩، ٨٠.

١٦- ابن عساكر، الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ت ٥٧١هـ/ ١١٧٦م، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأوائل أو اجتاز بنواحيها من واردتها وأهلها، ج ٢، القسم الأول- خطط دمشق، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م، ص ١٠٩؛ ابن كثير، عماد الدين إسماعيل ت ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله للتركي بدار هجر، ط ١، القاهرة، ١٩٩٧، ج ٩، ص ٥٨٤؛ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، بدار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧، ج ٣، ص ٤٤١؛ اللواتي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد، ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م، فتوح الشام، تحقيق عبد اللطيف عبد الرحمن، ط ١، بدار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، ج ١-٢، ص ٨٣؛ البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م، فتوح البلدان، ط ١، بدار صادر، بيروت، ١٩٩٥، ص ١٠٢.

١٧- ابن كثير، المصدر السابق، ج ٩، ص ٥٨٤.

١٨- ابن كثير، المصدر نفسه، ص ٥٨٥.

١٩- البلاذري، المصدر السابق، ص ١٠٢.

٢٠- ابن عساكر، المصدر السابق، ص ٣٦١.

٢١- نفس المصدر والصفحة.

- ٢٢- جميل أكبر، عمارة الأرض في الإسلام- مقارنة للشريعة بأنظمة العمران الوضعية، مؤسسة الرسالة، ط٣، بيروت، ١٩٩٨، ص ٩٣، ٥٨.
- ٢٣- الجريب؛ مقدار من الأرض، ومكيال قدر أربعة أقدرة وقيل مساحة من الأرض تبلغ ٣٦٠٠ نراع وقيل عشرة آلاف نراع، انظر أكبر، المرجع السابق، ص ٩٥.
- ٢٤- ابن عساكر، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣١، الطبري، المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٣٧-٤٤٠، اللواتي، المصدر السابق، ج ١-٢، ص ٨٥، ٨٠.
- ٢٥- ابن عساكر، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٨٦، ١٨٧.
- ٢٦- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م، فتح الباري لشرح صحيح البخاري، ثلاثة عشر جزءاً، مطبع دار الريان للتراث، ١٩٨٦، ج ٦، كتاب إحياء الموات، حديث ١١٤٤، ص ١٤٢.
- ٢٧- جميل أكبر، المرجع السابق، ص ٩٣.
- ٢٨- البلاندي، المصدر السابق، ص ٧٥، ٧٩.
- ٢٩- ناصر الرباط، مقدمة لدراسة تطور السوق، المرجع السابق، ص ٧٨.
- ٣٠- المرجع السابق نفسه، ص ٧٩.
- ٣١- ابن عساكر، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٥٥، ٣٥٤، ابن كثير، المصدر السابق، ج ٩، ص ٥٨٠، ٥٨١.

32- AlSayyad. Nezar, Op. Cit. P34.

٣٣- البلاذري، المصدر السابق، ص٤٢.

٣٤- الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر ت٨٠٧هـ/١٤٠٤م، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، عشرة أجزاء، مكتبة القدسي، دم، ١٩٩٤، ج٢، رقم الحديث ٣٠٩١، ص١٧٩.

٣٥- محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص٢٣٩.

٣٦- ناصر الرباط، مقدمة لدراسة تطور السوق في مدينة دمشق، المرجع السابق، ص٧٨.

٣٧- الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر ت٨٠٧هـ/١٤٠٤م، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، عشرة أجزاء، مكتبة القدسي، دم، ١٩٩٤، ج٢، رقم الحديث ٣٠٩١، ص١٧٩.

38- Grunebaum. G.Von, the Nature and Growth Cultural Tradition , London, Routledge& Kegan paul Ltd, 1961, pp148,149.

٣٩- كامل كنان، تخطيط المدينة العربية الإسلامية الخصوصية والحدائق، مجلة المدينة العربية، عدد ١١٧، جامعة بغداد، ٢٠٠٤م، ص٣٤.

40- Sauvaget.J, Alep, Essai Sur Le Developpement D'une grande
Ville Syrienne des Origines au Milieu du XAX siele, Paris,
1941, pp104,105

٤١- صالح الهذلول، المدينة العربية الإسلامية أثر التشريع في تكوين البيئة
العمرانية، دار السهن، الرياض، ١٩٩٤، ص ٢١.

٤٢- كارل ولتسينجر وكارل ولتسينجر، الآثار الإسلامية في مدينة دمشق،
تعريب قاسم طوير، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٤م، ص ٥٩، ٦٠.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر

١- ابن عساكر، الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ت ٥٧١هـ / ١١٧٦م،
تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأوائل أو اجتاز
بنواحيها من واديه وأهلها، ج ٢، القسم الأول - خطط دمشق، دار الفكر،
بيروت، ١٩٩٥م.

٢- ابن كثير، عماد الدين إسماعيل ت ٧٤٤هـ / ١٣٤٣م، البداية والنهاية، تحقيق
عبد الله التركي، دار هجر، ط ١، القاهرة، ١٩٩٧.

٣- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م، تاريخ الرسل
والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧.

٤- اللواقدي، أبي عبد الله محمد بن عمر بن واقد، ت ٢٠٧هـ / ٨٢٢م، فتوح الشام، تحقيق عبد اللطيف عبد الرحمن، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧.

٥- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م، فتوح البلدان، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥.

٦- الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، عشرة أجزاء، مكتبة القدسي، دم، ١٩٩٤، ج ٢، رقم الحديث ٣٠٩١.

ثانياً: المراجع:

- المراجع العربية:

١- بشير زهدي، مملكة دمشق الأرامية، الحوليات الأثرية السورية، م ٨، المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق.

٢- _____، دمشق في عصور اليونان والرومان والبيزنطيين، مجلة المعرفة، ع ٥٣٢، وزارة الثقافة، سورية، ٢٠٠٨.

٣- جميل أكبر، عمارة الأرض في الإسلام- مقارنة الشريعة بأنظمة العمران الوضعية، مؤسسة الرسالة، ط ٣، بيروت، ١٩٩٨.

٤- جيرارد ديجورج، دمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر، ترجمة محمد رفعت عواد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤.

- ٥- جيرارد ديجورج، دمشق من عصر ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية ، ترجمة محمد رفعت عواد، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة، ٢٠٠٥.
- ٦- عبد القادر الريحاوي، تاريخ دمشق العمراني، الحوليات الأثرية السورية ، م١٤، المديرية العامة للأثار والمتاحف، دمشق، ١٩٦٤.
- ٧- علي أبو عساف، أرام دمشق، مجلة المعرفة، ع٥٣٢، وزارة الثقافة، سورية، ٢٠٠٨.
- ٨- فراس السواح، أرام دمشق وإسرائيل في التاريخ التوراتي، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٥.
- ٩- ناصر الرباط، مقدمة لدراسة السوق في مدينة دمشق في القرن السابع حتى القرن التاسع عشر ميلادي، الحوليات الأثرية السورية، م٣٨، ٣٩، ١٩٨٨/١٩٨٩.

- المراجع الأجنبية:

- 1- AlSayyad. Nezar, Cities and Caliphs, on the Genesis Arab Muslim Urbanism, Greenwood Press, New York, 1991.
- 2- Grunebaum. G.Von, the Nature and Growth Cultural Tradition , London, Routledge& Kegan paul Ltd, 1961, pp148,149.

- 3- Kennedy. Hugh, The last Century of Byzantine Syria: Areinterpretation in Byzantinish Forchangin, Baudx, 1985.
- 4- Lababedi. Zara, The Urban Development of Damascus:a Study of its past, Present& Future, University of London, Faculty of The Built Environment, 2008.
- 5 - Sauvaget. J, Alep, Essai Sur Le Developpement D'une grande Ville Syrienne des Origines au Milieu du XAX siele, Paris, 1941, pp104,105